



Change Image



مقدمة

حتى وقتٍ قريب، كان أي شخص يتفحص الفناء الخارجي لمعظم المنازل في السودان أو ضواحيه، خاصة في الأحياء الشعبية القديمة، يلاحظ وجود حفرة في أحد أركان المنزل، يتراوح عمقها بين 50 و70 سنتيمتراً، ومبطنةً بابناء فخاري داخل إطار دائري، تُعرف باسم «حفرة الدخان». ويوضع فوقها غطاء تقليدي عبارة عن حصير دائري مصنوع من سعف النخيل، يتوسطه فتحة دائرية بحجم الحفرة.

ويُعدّ هذا جزءاً من طقوس الجمال العريقة لدى النساء السودانيات، خاصة قبل الزواج وبعد الولادة. فالدخان هو حَمَام بخار من دون استخدام الماء، ويكتمل عبر الدخان المتصاعد من حرق كمية من خشب الطلح أو السدر أو الكافور في حفرة تحت الأرض، حيث تجلس الفتاة مقابل الفتحة التي يخرج منها الدخان داخل خيمة صغيرة تُصنّع قديماً من صوف الماعز، أو تحت بطانية حديثة تغطي الجسد بالكامل.

لقد أثرت الحداثة في التقاليد والعادات السودانية بأشكال مختلفة، فاندثر بعضها تماماً باستثناء حفرة الدخان التي قاومت التحديث وحافظت على دلالتها التجميلية بين النساء السودانيات، المعروفات باهتمامهن بالعبور والبخور، كما تشير الأنتروبولوجية أميرة أحمد. وقد طرحت تساؤلات حول هذا الاهتمام الخاص، مقترحة أن هذا الارتباط الوثيق بين المرأة السودانية وعبورها قد يوفّر مدخلاً لفهم وتحليل سياسات النوع الاجتماعي والعلاقات في المجتمع السوداني.

إن التعمّق في هذه الحالة قد يكشف معاني ودلالات للعطر تتجاوز قيمته المادية والحسية، إذ يمثل عنصرًا مهمًا في منظومة التراث السوداني. ويبقى السؤال حول دلالة ودور العطر في مجتمع محافظ كالسودان، تحكمه ثقافة أبوية تنظّم علاقة المرأة بالمجتمع. وبعبارة أخرى، هل يمكن اعتبار هذه الطقوس الغنية في إعداد وصناعة واستخدام العطور التقليدية وسيلة تخلق بها النساء السودانيات فضاءً خاصًا يعوّض عزلتهن التاريخية وتميشتين وإقصاءهن؟ وإذا صحت هذه الفرضية، فهل يمكن أن يكون العطر، بقيمته المادية والرمزية، أداة لمقاومة القهر الذي يستهدف النساء؟

وهل يمكن أن نذهب أبعد من ذلك لنستنتج أن العطر، بسحره وفوائده، قد شكّل سلاخاً في ثورة النساء السودانيات ضد النظام الأبوي، وضد الاستعمار في الماضي، وضد الأنظمة الفاشية والديكتاتوريات التي عانى منها البلاد؟ وما إمكانات العطر في تعزيز التضامن والعمل الجماعي بين النساء في السودان؟

تتناول الباحثة النسوية والطبيبة ناهد محمد الحسن بعض هذه الأسئلة، مشيرة إلى أن طقوس العناية بالجسد هي جزء من بناء البيت؛ حفرة الدخان، وأحياناً مظلة الدخان، تُحفر وتُجهّز أحياناً بمساعدة الرجال، وهي ليست مجرد غرف ساونا، بل منظومة متكاملة من الحقوق. إن لحظة جلوس المرأة في حفرة الدخان هي لحظة هدوء من ضجيج اليوم، تجمع فيها نفسها، وتأمّل ذاتها، وتسترخي. فالدخان علاج عطري يخفف الآلام الروحية والجسدية، وينظف الجسد، ويخلصه من روائح الطهي وأعباء المنزل.

كما أن الدخان لغة تواصل غير لفظية مع الجيران وضيوف المنزل، وأحياناً مع الأقارب. فهو يضع حدوداً، وينظّم الحركة والزيارات، ويُعدّ أيضاً وسيلة تواصل مع الزوج للتعبير عن الحاجة إلى الحب والمودة. إنه انفصال عن زمن لا يخصّها، وطريقة تعيش بها لنفسها وتطالب بحقوقها من دون كلام.

أما من يرى في الدخان أمرًا فاضحاً أو تقليدياً بالياً ويستبدله بالساونات أو ما شابهها، فعليه الانتباه إلى أغراضه الأخرى، خاصة لدى النساء اللواتي ما زلن داخل أطر المؤسسات التقليدية. فالدخان هو صوتين في تأكيد ذواتهن والدفاع عن مساحتهن الخاصة داخل البيت.

القيمة الثقافية :

جزء من عادات الزواج والولادة وطقس تجميلي يخص المرأة السودانيّة دوناً عن نساء الأرض.

الممارسات المرتبطة :

زواج، ولادة، مناسبات اجتماعيّة.

حتى وقتٍ قريب، كان أي شخص يتفحص الفناء الخارجي لمعظم المنازل في السودان أو ضواحيه، خاصة في الأحياء الشعبية القديمة، يلاحظ وجود حفرة في أحد أركان المنزل، يتراوح عمقها بين 50 و70 سنتيمتراً، ومبطنةً بابناء فخاري داخل إطار دائري، تُعرف باسم «حفرة الدخان». ويوضع فوقها غطاء تقليدي عبارة عن حصير دائري مصنوع من سعف النخيل، يتوسطه فتحة دائرية بحجم الحفرة.

ويُعدّ هذا جزءاً من طقوس الجمال العريقة لدى النساء السودانيات، خاصة قبل الزواج وبعد الولادة. فالدخان هو حَمَام بخار من دون استخدام الماء، يكتمل عبر الدخان المتصاعد من حرق كمية من خشب الطلح أو السدر أو الكافور في حفرة تحت الأرض، حيث تجلس الفتاة مقابل الفتحة التي يخرج منها الدخان داخل خيمة صغيرة تُصنّع قديماً من صوف الماعز، أو تحت بطانية حديثة تغطي الجسد بالكامل.

لقد أثرت الحداثة في التقاليد والعادات السودانية بأشكال مختلفة، فاندثر بعضها تماماً باستثناء حفرة الدخان التي قاومت التحديث وحافظت على دلالتها التجميلية بين النساء السودانيات، المعروفات باهتمامهن بالعبور والبخور، كما تشير الأنتروبولوجية أميرة أحمد. وقد طرحت تساؤلات حول هذا الاهتمام الخاص، مقترحة أن هذا الارتباط الوثيق بين المرأة السودانية وعبورها قد يوفّر مدخلاً لفهم وتحليل سياسات النوع الاجتماعي والعلاقات في المجتمع السوداني.

إن التعمّق في هذه الحالة قد يكشف معاني ودلالات للعطر تتجاوز قيمته المادية والحسية، إذ يمثل عنصرًا مهمًا في منظومة التراث السوداني. ويبقى السؤال حول دلالة ودور العطر في مجتمع محافظ كالسودان، تحكمه ثقافة أبوية تنظّم علاقة المرأة بالمجتمع. وبعبارة أخرى، هل يمكن اعتبار هذه الطقوس الغنية في إعداد وصناعة واستخدام العطور التقليدية وسيلة تخلق بها النساء السودانيات فضاءً خاصًا يعوّض عزلتهن التاريخية وتميشتين وإقصاءهن؟ وإذا صحت هذه الفرضية، فهل يمكن أن يكون العطر، بقيمته المادية والرمزية، أداة لمقاومة القهر الذي يستهدف النساء؟

وهل يمكن أن نذهب أبعد من ذلك لنستنتج أن العطر، بسحره وفوائده، قد شكّل سلاخاً في ثورة النساء السودانيات ضد النظام الأبوي، وضد الاستعمار في الماضي، وضد الأنظمة الفاشية والديكتاتوريات التي عانى منها البلاد؟ وما إمكانات العطر في تعزيز التضامن والعمل الجماعي بين النساء في السودان؟

تتناول الباحثة النسوية والطبيبة ناهد محمد الحسن بعض هذه الأسئلة، مشيرة إلى أن طقوس العناية بالجسد هي جزء من بناء البيت؛ حفرة الدخان، وأحياناً مظلة الدخان، تُحفر وتُجهّز أحياناً بمساعدة الرجال، وهي ليست مجرد غرف ساونا، بل منظومة متكاملة من الحقوق. إن لحظة جلوس المرأة في حفرة الدخان هي لحظة هدوء من ضجيج اليوم، تجمع فيها نفسها، وتأمّل ذاتها، وتسترخي. فالدخان علاج عطري يخفف الآلام الروحية والجسدية، وينظف الجسد، ويخلصه من روائح الطهي وأعباء المنزل.

كما أن الدخان لغة تواصل غير لفظية مع الجيران وضيوف المنزل، وأحياناً مع الأقارب. فهو يضع حدوداً، وينظّم الحركة والزيارات، ويُعدّ أيضاً وسيلة تواصل مع الزوج للتعبير عن الحاجة إلى الحب والمودة. إنه انفصال عن زمن لا يخصّها، وطريقة تعيش بها لنفسها وتطالب بحقوقها من دون كلام.

أما من يرى في الدخان أمرًا فاضحاً أو تقليدياً بالياً ويستبدله بالساونات أو ما شابهها، فعليه الانتباه إلى أغراضه الأخرى، خاصة لدى النساء اللواتي ما زلن داخل أطر المؤسسات التقليدية. فالدخان هو صوتين في تأكيد ذواتهن والدفاع عن مساحتهن الخاصة داخل البيت.

التعبيرات الثقافية

...

القابلية

التحديات :

تضالول الغطاء النباتي في البلاد بعد فقدان 60 في المئة من الأشجار خلال العقود الثلاثة الماضية، إذ تتآكل مساحات الغابات بشكل متسارع بسبب القطع الجائر للأشجار للحصول على أرباح سريعة.

التطوّر الرأسي للمعمار الحديث.

الموارد الطبيعية المستخدمة

حطب أشجار الطلح والشاف. زيت شحم الخروف (الكركار) مخلوطاً بماء القرنفل وبعض العطور.

المجال

العادات المتعلقة بالمنزل وممارسات الأسرة

تدخين الجسم

المجموعات المجتمعية والموقع

المجموعات المجتمعية



النساء – معظم مجتمعات وثقافات السودان.

الممارسون



نساء السودان

الغرض/الاستخدام



تجميلي – صحي.

تجميليّة وطبيّة أيضاً، حيث أن ، دخان الطلح والشاف يحتوي على مادة "فينوليك" أو "فينول" التي تساعد في تثبيت بروتين الجلد وتعمل على إزالة القشرة الخارجية للبشرة. ومن فوائد الدخان أنه يُخلص الجسم من السموم والأملاح الزائدة والسوائل المحتبسة في الجسم من خلال إخراجها عن طريق مسامات الجلد على شكل عرق. بالإضافة إلى علاج المشاكل التي تتعلق بالتهابات المفاصل أو الروماتيزم، ويقوم بالتخفيف من الآلام الناتجة عنها. وهو علاج للأمراض والعنوات الفايروسية أو البكتيرية، مثل الإنفلونزا ونزلات البرد أحياناً، بالإضافة إلى علاج التهابات المسالك البولية التي تتمثل في الحرقّة عند التبول، أو الحكّة المستمرّة، أو حصر البول، عسر الهضم والغازات المرعجة الناتجة عنه، والتي قد تحدث نتيجة تسمم أو برد أو عدوى بكتيرية وغيرها. وبجانب ذلك يساعد الدخان في القضاء على علامات التقدم في السن، والتي تتمثل في التجاعيد خاصة في منطقة الوجه أو اليدين، حيث يتم ذلك من خلال المداومة عليه.

الدخان أيضاً علاج للندبات الموجودة على الجسم، والتي قد تكون بسبب التعرض لحرق، أو جرح، كما أنه يعمل على إزالتها مع مرور الوقت من خلال تفتير الجسم وإزالة الخلايا الجلدية الميتة به، الأمر الذي سيؤدي إلى الحصول على بشرة ناعمة الملمس، بالتخلص من التصبغات الداكنة والبقع التي تظهر على البشرة نتيجة التعرض المستمر لأشعة الشمس.

المعرفة/المهارات



يتطلّب الدخان معرفة بأنواع الحطب وكميته المستخدمة داخل الحفرة وبعض العطور والزّيوت المستخدمة فيه، حيث تسمح المرأة جسدها بهما قبل أن تجلس فوق حفرة الدخان. ويختلف دخان الزواج عن دخان الولادة وعن (البوخة) الاعتيادية فيما بينهما.

التعليم



متوارث وينتقل عبر الأجيال.

الأدوات والمعدات والخدمات



البرش، الشملة، حطب الطلح أو الشاف أو غيرهما، زيوت عطريّة.

التاريخ



لا يُعرف لحفرة الدخان تاريخ محدّد لكن تؤكّد معظم الدراسات أنها عادة سودانيّة موجودة منذ مئات السنين.